هم الوباء.. هي الدواء

رواية

صالح مبروكي

هم الوباء.. هي الدواء

رواية

صالح مبروكي

..هم عزلوه.. هم سخروا منه.. هم رفضوه.. هم نفوه
..هو سامحهم.. هو ساعدهم.. هو احتضنهم.. هو قبلهم
..هي أحبته.. هي احترمته.. هي استوعبته.. هي داوته
..هم الإعاقة.. هم الوباء
كان لابدّ له من دواء.. ليعيش، ليتنفس، ليتواصل
و كانت هي الدواء و الشفاء.. منهم ومن وبائهم

فيفري 2019

كاتب و مؤلف
قصة، رواية، مقالة، شعر...
منشورات الزرافة نيزنات للنشر الإلكتروني الذاتي
صالح مبروكي
الهاتف: +21698603987

هم الوباء.. هي الدواء

روايــة

بقلـــــم

صالح مبروكي

- تصميم الغلاف و الصور الداخلية من انجاز الكاتب.

جميع الحقوق محفوظة للكاتب 2019 ©

الإهـــــداء:

إلى والدي العزيز سي يوسف -رحمه الله- المتوفي سنة 2017- و صديقي الدائم الذي علمني ان الحياة عطاء بلا حدود و أن شرف الإنسان في المحاولة و مقارعة الفشل حتى آخر رمق في سبيل النجاح.
و إلى جميع ضحايا كورونا المستجد في العالم.

صالح مبروكي

تصديـــــــــــــــر:

"وهل يأبق الإنسان من ملك ربّه
فيخرج من أرض له و سماء"

- أبو العلاء المعري -

هم الوبـــاء.. هي الـدواء

هم عزلوه.. هم سخروا منه.. هم رفضوه.. هم نفوه..
هو سامحهم.. هو ساعدهم.. هو احتضنهم.. هو قبلهم..
هي أحبته.. هي احترمته.. هي استوعبته.. هي داوته..
هم الإعاقة.. هم الوباء..
كان لابدّ له من دواء.. ليعيش، ليتنفس، ليتواصل
و كانت هي الدواء و الشفاء.. منهم ومن وبائهم

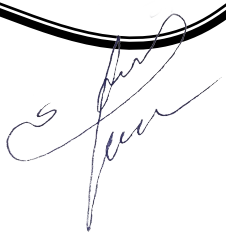

يعمل السيد "المتفائل دائما.." كمحرّر لركن "قلوب في دوامة" في احدى الصحف الأسبوعية المشهورة جدا على الساحة الإعلامية. يطالعها الخاص و العام، الكبير و الصغير، الجاهل و المتعلم، الرجل و المرأة. صحيفة لا تجامل و لا تعادي و "تعطي لكسرى ما لكسرى" مبدؤها الأول و الثاني و الأخير خدمة البلاد و العباد بالتوعية و المساهمة في بناء العقول و ترشيدها إلى ما فيه خير الكلّ.

تفوق مبيعات هذه الجريدة الشعبية مبيعات اكبر الشركات التجارية و اكبر محلات "الكفتاجي.. و الملاوي". الكل يقرأها و هي الجريدة الوحيدة التي لن يعيرك اياها جارك إذا انت طلبتها منه بعد أن تنفذ من أكشاك الجرائد.

نجم هذه الجريدة و محرّرها الأوّل كان يُعرف باسم مستعار "المتفائل دائما.." يشرف على تحرير ركن "قلوب في دوامة.." الذي اشتهرت به هذه الجريدة على امتداد ثلاثين عاما. منذ ثلاثة عقود و صديقنا يشرف على حظوظ هذه الصفحة الإجتماعية-العاطفية-النفسية.. ساعد ملايين

الحيارى و انتشل ملايين الضائعين التائهين من جحيم مشاكلهم و مد يد العون بالنصيحة و الإرشاد و التوعية لمئات الآلاف من الفتيان و الفتيات في مقتبل العمر: من المراهقين و المراهقات و الناضجين و الناضجات.

جميع القراء يراسلونه من كل مكان حتى من مناطق الظل و يكتبون له عن مشاكلهم و هواجسهم الذاتية-الشخصية، الأسرية-الإجتماعية و حتى الخاصة جدا جدا.

إذا أقبل يوم الجمعة من كل اسبوع على مدار السنة فلن ترى في الأيادي غير جريدة "الفصيح" تنتقل من يد إلى آخري و تتفحصها العيون بنهم. عيون من يحسن القراءة و من لا يحسنها. تُشترى هذه الصحيفة الجماهيرية بهذه الصورة المنقطعة النظير بفضل نجمها السيد "المتفائل دائما.."

منذ ما يزيد عن ثلاثة عقود من الزمن و صاحبنا المحرّر لا ينقطع عن تحرير ركن الحيارى الضالين. لم يهمل يوما رسالة لقارئ ولو كانت بسيطة و سطحية المحتوى. يجيب عن جميع أسئلة من كاتبوه و عن كل ما يجول في خاطرهم

و قد عُرف بالتواضع و التبسّط، حتى أن القراء كانوا يطلقون عليه إسم "صحفي الشعب."
فهذه فتاة تكاتبه من داخل البلاد عارضة عليه مشكلتها الشخصيّة على النحو التالي:
"سيدي، (المتفائل دائما..) لشد ما تسعدني مراسلتك و كم يطيب لي أن أتعرف عليك.
في البداية، أعرض عليك مشكلتي. إسمي سميّة(...) من مدينة (...) بشمال البلاد. تلقيت تعليما محترما و بعد تخرجي مكثت بالمنزل في انتظار التعيين. طال انتظاري و تأخر التعيين . اكتنفني احساس بغربة هوجاء رمت بي في بركان مستعر من اليأس و الإحباط. مرت سنة و تلتها أخرى حتى توقفت عن التأريخ للزمن. وهن جسمي و خمدت أنوار شبابي فصرت شبح فتاة لا غير. هزيلة و صفراء.
حارت أمي في ايجاد دواء لحالتي فزارت بي جميع الأطباء و حتى العرافين و المشعوذين دون جدوى. فكانت حالتي تسوء يوما بعد يوم. أما أنا فكنت أعلم أن علاجي في تكسير طوق الرتابة الذي يسجنني و يخنق ما بقي لي من أنفاس.

قررت في لحظة لاوعي أن أحل معضلتي بطريقتي.
عرضت نفسي على أحد أبناء حيّنا –وقد ربطتني به علاقة حب سابقة في أيام الدراسة الثانوية_ لاعتقادي أن حلّ مشكلتي يكمن في تفريغ ما أصابني من كبت عاطفي و جنسي على امتداد سنوات طويلة. زادته البطالة و الفراغ تعكرا و سوءا.
كنت مطّلعة على علم النفس التحليلي و أعلم أن الكبت الجنسي قد يؤدي بصاحبه إلى أمراض نفسية عديدة و قد يدفع به حتى إلى الانتحار، و لكي يكون الفرد متزنا نفسيا يتحتم عليه أن يتشبّع جنسيا.
رفضني صديقي ذلك بدعوى أنني لم أعد أستهويه و نصحني في لهجة ساخرة أن ابحث عن معالم أنوثتي و تضاريسها التي ضيعتها في الدروس و الامتحانات و "البرسيالات" إن كنت بالفعل ما زلت أنثى. قضت سنوات الدراسة على أنوثتي و نضارتي ثم حلت سنوات البطالة و الانتظار لتجهز على أدميتي. كنت أنثى، كنت رقيقة، كنت

خلوقة، كنت جميلة، كنت حالمة.. فأمسيت ظلا شاحبا لا يصلح لشيء.. لا للحب و لا للولادة.
سيدي، "المتفائل دائما.."، إنني أفكر بجدية في وضع حد لحياتي التافهة هذه. لا قيمة لي فيها و لا مكان لي في المجتمع و لا دور. لا أحد يرغب فيّ، حتى أفراد أسرتي سئموا رؤيتي و أصبحوا يخطبون لي كل من هبّ و دبّ حتى "سقط المتاع" من الناس، المهم أن يتخلصوا مني بأي ثمن.
ساعدني، سيدي، أرجوك و لا تهمل رسالتي. فمهمة الصحافة هي انسانية قبل كل شيء، قد أمدد في حياتي إلى أن أقرأ ردك على رسالتي في "الفصيح" الأسبوع القادم، و إن أنت أهملت رسالتي تكون قد حكمت عليّ بالموت و ما تعودناك ظلوما يا سيدي.
ملاحظة: أرجو أن نتراسل بصفة شخصية. هل هذا ممكن؟
و شكرا.

الإمضاء
المنكسرة
"س.ن. الشمال"

وصلت رسالة هذه القارئة إلى مقر الجريدة قبل موعد صدور "الفصيح" فسُلمت إلى رئيس التحرير رفقة رسائل أخرى موجهة إلى "المتفائل دائما.." رُتبت جميعها حسب تاريخ ورودها على مقر الجريدة و لم يكن أحد من محرّري الجريدة أو من إداريّيها مسموح له بفتح رسالة موجهة إلى صديقنا "المتفائل دائما.." وضعها السيد منجي على مكتبه ثم رفع سماعة الهاتف و تكلّم:

- "سيدة حسنة.. تعالي أرجوك.."

وضع السماعة منتظرا قدومها، طرقت السيدة حسنة الباب فأذن لها بالدخول. جلست قبالة رئيسها و أنصتت:

-"بريد صديقك جاهز ليرد عليه و لا نريد أن نضيّع الوقت، أريدك أن تهاتفيه لتخبريه أن بريد قرائه اكتمل مثل كل أسبوع حتى يرسل من يتسلمه منك مثل كل مرة. إذهبي إلى الهاتف العمومي

المقابل لمقر الجريدة و هاتفيه بسرعة ثم عود لعملك."

- "اتفقنا.."

استأذنت السيدة حسنة من رئيسها المغادرة. مرت على زملائها في قسم الرياضة حيث تركت حقيبتها. تناولتها بسرعة و قصدت باب الخروج. بعد لحظات كانت بصدد مكالمة صديقنا،

-"الو..من؟"

-"أنا..أنا حسنة"

- كيف حالك، يا عزيزتي؟"

- "بخير..و أنت؟ و الصغيرة؟"

- "طبعا أنا دائما بخير و على أحسن حال و البسمة لا تفارقني.."

-"أنت دائم الانشراح و السعادة.."

-"طبعي.. طبعا هذه عُملتي الدائمة.."

-"دامت سعادتك.."

-"ما الموضوع يا حسنة؟"

-"أردت أن أعلمك باكتمال بريد قرائك و كذلك نزولا عند رغبة سي منجي. كما أحب أن أخبرك أني سأتأخر قليلا.."
- "متى ستعودين.؟"
-"حوالي العاشرة ليلا.."
-"جيّد.."
-"كيف حال الصغيرة.؟"
-"بألف خير.. تلعب و تلهو كعادتها.."
-"حسن.. إلى اللقاء يا أسعد الناس.."
-"إلى اللقاء يا صغيرتي.. لا تنسي أن تجلبي لي معك بريد القراء لأطّلع عليه.."

لا يعرف رئيس التحرير شيئا عن صاحبنا. لا اسمه و لا لقبه و لا عنوانه و لا رقم هاتفه. و لا يعرف عنه أيّ فرد في الجريدة و لو معلومة بسيطة عن هويته، باستثناء السيدة حسنة محرّرة ركن "مرايا الثقافة" التي تعرفه حق المعرفة.

حاول أحد زملائها الفضوليين، السيد "طارق" يوما أن يعرف منها معلومات عن صديقنا فأخبرته أن الأمر لا يعنيه و نهرته بشدّة.
في أحد الأيام دُعيت حسنت لتغطية أحد المعارض الفنية في المدينة و بينما هي تسير في أحد الشوارع المكتظة أُختطفت منها حقيبتها. انتزعها –بقوة و بسرعة- من كتفها شاب على متن دراجة نارية كبيرة و زاغ في لمح البصر عن الأنظار. جرت خلفه، حسنة، لكن دون جدوى فتوجهت من حينها إلى مركز الشرطة بالمكان لتحرير محضر بالواقعة. بعدها واصلت طريقها نحو المعرض.
في احدى الأنهج الضيقة كان زميلها طارق في انتظار صاحب الدراجة الخاطفة، تسلم منه الحقيبة و سلمه مبلغ مائة دينار. صاحب الدراجة يعلم أن "طارق" صحفي و هو زميل " الضحية" صاحبة الحقيبة. و أنه دبّر أمر اختطاف الحقيبة لغاية في نفسه ربما ليظهر بمظهر الشجاع المقدام أمام حسنة لاستمالة قلبها عندما يرجع لها الحقيبة مدعيا أنه صارع مختطفها و طارده ساعات طويلة على شاكلة الأفلام الهندية.

وضع طارق حقيبة حسنة في حقيبة رياضية كبيرة و قصد منزله و ما أن أغلق باب منزله عليه، شرع في تفتيش الحقيبة بدقة. عثر فيها على مفكرة حسنة، تصفحها ورقة ورقة. لم تكن تحتوي على أكثر من بعض العناوين و أرقام الهاتف الخاصة بأصدقائها و معارفها و أقاربها وفي الصفحة المخصصة للحرف (طاء) قرأ طارق اسمه هو و عنوانه و رقم هاتفه (طارق...)، يعلم أن حسنة خطت هذه المعطيات عنه بطلب منه هو لتتصل به في حال احتاجته في مهمة صحفية عاجلة أو ليجري ريبورتاجا أو لقاء، في حال احتاجته ولم تجده في مقر الجريدة. أعاد تصفّح المفكرة عدة مرات لكنه لم يعثر على ضالته، اعتقد أنها تحتفظ في مفكرتها بعنوان صديقنا اللغز "المتفائل دائما.." غير أن حسنة خيبت آماله، اذ كانت تعلم مسبقا أن "طارق" سيحاول معرفة سرها الصغير كلفه ذلك ما كلفه. كيف لا و هو المعروف ب "ميكيافيلي الصحافة" بين زملائه.

استشاط طارق غضبا و حزذ في نفسه أن تهزمه حسنة، بينما هو غارق في محيط من الغيظ رن جرس الهاتف:

-"الو..من؟"

-"أنا حسنة يا صديقي.."

-"أهلا..حســ.."

-"هل أعجبتك حقيبتي.؟"

-"حقيبة..حقيبة ماذا..؟"

-"حقيبتي التي طارت بقدرة قادر، لتحط في منزلك و أنت الآن بصدد نبشها.."

-"أنت تهذين، حسنة.."

-"على أية حال..أنت لك من يخطف الحقائب لحسابك. و أنا لي من يرصد لحسابي. و قد تم رصدك و انتهى الأمر..و أعلم أنك لن تتطلع على سري ما حيّيت.."

-"سنرى يا حسنة..إما أنا أو هو في حياتك.."

-"أنت مجنون يا طارق.."

-"مجنون بك..ربّما"

-"هيا أيها المنحرف الصبي، احمل لي الحقيبة إلى رواق الفنون، مسجّلي فيها و أحتاجه في عملي.. طارت نقودك في الهواء يا طارق.."(تضحك بمكر وهي تضع سماعة الهاتف..)

أعلن رئيس التحرير يوما في جريدته أن "المتفائل دائما.." سينقطع عن تحرير ركن الحيارى الشهير بداية من العدد المقبل. و كان هذا الركن في المحدّد خاليا من امضاء صديقنا بل عوضته توقيعة سي منجي بـــ"المبتسم أبدا.." و ليته ترك الركن خاليا أو عوضه بركن جديد أفضل من أن يصبح مصدر تندر و سخرية بين زملائه و بين القراء. وجه إليه صهره و رئيسه في نفس الوقت "سي عبد الستار" رسالة تحتوي على كلمتين اثنتين: "عد إلى منزلك و نم.." أما صديقه "سي علي" فقد هاتفه مداعبا: "يا سي المنجي، كان من الأجدر بك أن تحافظ على امضاء "المتفائل دائما.." و ترد على رسائل القراء بطريقة تشبه طريقة غريمك. أحسن من تُضحك العالم عليك..(ربي يهديك يا صاحبي..)"

منذ ذلك الحين عرف سي المنجي أن "الفصيح" لا يمكن لها أبدا أن تتخلى عن خدمات صديقنا المحرّر الشهير.
ذلك أن رئيس التحرير اتخذ قرارا في لحظة تسرع. و دون أن يفكر في مطلب "المتفائل دائما.." الذي وصل إلى رئاسة التحرير عن طريق البريد و دون أن يستشير رئيسه في امر هذا المطلب – يقضي بفصل صديقنا و تجميد اشرافه على ركن "الحيارى".
ذهب رئيس التحرير إلى مكتب حسنة ليقول لها: "يا حسنة، أخبري صديقك بأننا قبلنا إضافة صفحة جديدة لركنه وسنزيده مبلغ مائة دينار كما طلب هو و أراد. خذي هذه رسائل القراء، احمليها له وهذا عقد العمل في شكله الجديد مختوم و معتمد، و قول له أنني مستعد لتلبية جميع رغباته. المهم ألا ينقطع عن تحرير ركنه. لقد سبب لي ذلك احراجا لن انساه ما حيّيت.. و كادت "خبزتي أن تُقطع.."
انسحب من مكتب حسنة و في الرواق المؤدي إلى مكتبه حدث نفسه قائلا: "آه لو أعرف هذا المدعي المغرور، الذي لا أعرف له وجها أو شكلا منذ

أشرفت على رئاسة التحرير منذ عشر سنوات خلت. آه لو لم يكن سي عبد الستار يشد آزره لدمرته و فصلته.."

لا يعلم أحد من موظفي الجريدة متى ابتدأ صديقنا العمل فيها. خاصة وأنّ جميعهم حديثو العهد بالعمل في "الفصيح" كل ما يعرفونه عنه أنه هو من وضع لبنة "الفصيح" الأولى و أنه رفيق درب "سي عبد الستار" و انه خيّر المكوث بعيدا عن الأضواء لغاية في نفسه لا يعلم كنهها أحد غيره.
حتى رئيس التحرير الذي يُشرف على إدارة الجريدة منذ عشرة أعوام فقد باشر مهمته بالجريدة و صديقنا متربع على حظوظ ركن "الحيارى" ربما قبل أن يولد "سي المنجي.."

حيّر هذا الرجل الجميع، من هو؟ من أين أقبل؟ لماذا يتخفى عن الناس؟ لماذا لا يكشف عن شخصيته؟ هل تمنعه موانع من التنعّم بالشهرة التي حقّقها على مرّ أكثر من ثلاثة عقود في خدمة القراء. و يشهد له أرشيف الجريدة بذلك.

خلال أحد الأيّام اجتمع السيد منجي بأسرة التحرير و تعمّد أن تكون "حسنة" متغيّبة إذ كلفها هو بمهمة خارجية بإحدى مدن الجنوب لتغطية حدث ثقافي موسمي، قال أنه: "هام و يتوقف عليه مصير صفحتها "مرايا الثقافة". استهل اجتماعه بمرؤوسيه بمقولة شكسبير الشهيرة "أكون أو لا أكون، ذاك هو السؤال.." يا اخواني لقد حيرني هذا الرجل، من هو؟ من هو..؟ أنا على أتم الاستعداد أن أُسند درجة ترقية.. بل ثلاث لمن يكشف لي عن سرّه منكم. و أوّل من ينجح في مهمته هذه سأعينه رئيس تحرير مساعد-استثنائي. المهم أريد رأس هذا soi-disant.. "المتفائل دائما.." الذي صيّرني أضحوكة في الأوساط الصحفية.."

(هنا تدخل ساعده الأيمن و الأيسر "طارق" ليقول: " سي منجي، المعذرة، لقد حاولنا و حاولنا وكأنه يقبع تحت الأرض و كأنه في رحم الضباب يرانا و لا نراه. لا يعلم أحد عن أمره شيئا ما عدى حسنة و هي لن تكشف سرمهما حاولنا معها..

و مهما ضايقناها.. حتى ولو سُحلت.. لكني أقترح أن نحاول معها محاولة أخرى و لا نيأس.. مثلا

نضايقها في العمل و ندبر لها مكيدة أو ورطة في شغلها فنضطرّها إلى كشف سره أو الاستقالة من الجريدة. و قد رسمت لذلك خطة محكمة.. تنتظر الضوء الأخضر منكم، (عرفي). و أقسم لك هذه المرة أننا سنكشفه و نحرق شهرته بين الناس."
امتلأ صدر سي المنجي ارتياحا مُمنيا النفس بظفر قريب برأس صديقنا:
خص "طارق" بالحديث، قائلا: "أحسنت يا داهية.. مستقبلك سيكو مشرقا و مشعا في هذه المهنة.. و هذا أكيد جدا.."
و كان لمؤتمر المؤامرة ما أراد و ما رسم، غير أن حسنة خيّرت الاستقالة عن كشف ستر صديقنا و أستاذها و ولي نعمتها.
خرجت من مقر الجريدة يائسة، بائسة، باكية و هامت على وجهها في شوارع المدينة مسترجعة ما حدث لها و كيف أن ضمير الناس مات و قُبر و سُفك دم الحق في هذه الدنيا. أغمي عليها فحُملت إلى مستشفى قريب من وسط المدينة. بعد أن تلقت الإسعافات الضرورية نقلتها الممرضة إلى غرفة بالمستشفى حيث ستمكث تحت مراقبة

الطبيب حتى تستقر حالتها. خاطبتها الممرضة بلطف:

- "سيدتي، هل تحبين أن نتصل بأحد من أفراد أسرتك لنخبره عن حالك.؟"
- "شكرا، أختي، إذا سمحت ناوليني الهاتف سأقوم بذلك بنفسي، أنا بخير الآن.."

مكنت الممرضة حسنة من جهاز الهاتف ثم غادرت الغرفة بلطف:

- "آلو.."
- "آلو.. نعم"
- "أنا حسنة.."
- "مرحبا.. لماذا يبدو صوتك متغيرا و متقطعا؟.. هل تبكين؟ هل هناك مشكلة..؟"
- "لا.. لا، أنا بخير.."
- "لا تحاولي مراوغتي.. أكيد هناك مشكلة..

و مشكلة كبيرة.."

- "لا، أنا بخير، صدقني.. أحس فقط ببعض الإرهاق الذي أصابني من فرط العمل.. ربّما."
- "إرهاق.؟ عن أي إرهاق تتحدثين..؟ لا تكذبي يا صغيرتي.."

تُجهش حسنة ببكاء شديد جراء إحساس مرير بالقهر انتابها بقوة..

- "ألو.. ألو حسنة.. لقد أخبرني المدير العام بكل ما حصل.."
- "كل ما حصل.. المدير العام.."
- "نعم (عرفنا) "سي عبد الستار" و (عرف) الخبيث منجي. هو صاحب أكثر من أربع صحف و طنية و مجلة دولية شهيرة.."
- "أنا لا أعرفه.."

- " هو يعرفك.. و أنا أعرفه و هو رفيق دربي و صديقي منذ عشرات السنين.."
- "و كيف علم بما حدث..؟"
- "له عيون و آذان في الجريدة مبثوثة في كل مكان فيها. و لا يعرفها أي فرد فيها. و قد أعلمني بالموضوع تفصيليا. ساخرا من حمق منجي و خيّرني - على سبيل الانتقام لك- بين عزله أو توبيخه و "تبزيع قهوتو في الجريدة.."، فاستسمحته أن يعفو عنه. إذ لا يمكننا العيش في الجريدة دون مناوشات و مؤامرات "سي المنجي" و حاشيته الحمقاء. فيكف يُعقل أن يُلصق بك أنت تهمة

الارتشاء و الجميع يعلم أنك مثال الصحفية النزيهة."

- "و بخصوصي.. أنا..؟"
- "أنت.. ماذا..؟"
- "أقصد بخصوص قرار عزلي من الجريدة.."
- "من الغد، ستجدين في انتظارك مكافأة و ترقية إلى خطة "رئيس قسم الشؤون الاجتماعية و الثقافية" في انتظارك. و فوق كل هذا رسالة اعتذار من "سي المنجي" بشحمه و لحمه.."
- "أخبرني - بالله عليك - كيف حصل هذا.؟"
- "يا صغيرتي.. الحكاية طويلة.. وساعة نومي قد أزفت.. أرجو لك الشفاء العاجل.. إلى لقاء قريب.."
- "إلى اللقاء.."

يبلغ صديقنا "المتفائل دائما.." أكثر من ستين سنة من العمر. أمضى شطرها في خدمة الصحافة و القراء. ابتدأ حياته الصحفية رفقة السيد عبد الستار لحظة أنشأ هذا الأخير خلال الستينات جريدة أسبوعية اجتماعية-هزلية-ساخرة تصدر بالعامية. فنشر اعلانا في أحد أعدادها مفاده رغبة الصحيفة في انتداب محرّرين يحسنون اللغة العربية قولا و كتابة و لهم تجربة سابقة مدعمة في مجال الصحافة و الأدب.. و لا تهم الشهادات.. المهم التجربة، الموهبة و الحس الصحفي التحليلي..

أرسل صديقنا مطلبا إلى الجريدة "أخبار الديار" آنذاك التي يشرف عليها "سي عبد الستار". تمت الموافقة على مطلبه بمعية خمسة مطالب أخرى. فدُعي المقبولون للعمل في جريدة أدبية ثقافية فنية حديثة العهد أسسها "سي عبد الستار"، هي الأخرى. أمضى صديقنا خمس سنوات في هذه الصحيفة الأسبوعية التي كانت تسمى "أخبار الديار.." حقّق فيها نجاحا باهرا و شهرة كبيرة فتمت دعوته من قبل المدير العام -الذي أصبح

صديقا حميما له- للإشراف على ركن "قلوب في دوامة.." في جريدة "الفصيح" المستحدثة، لم يمض أكثر من سنة فيها حتى اختفى تماما عن الساحة و اكتفى بإرسال مقالاته و كتاباته و تحليلاته إلى مقر الجريدة عن طريق البريد. كان عمره لحظتذاك يربو عن الثلاثين (خريفا.)
أما أصدقاؤه الذين اشتغلوا معه قبل اختفائه فقد فرقتهم دروب الحياة و لم يمكث منهم على الساحة الإعلامية غير "سي عبد الستار"، المدير العام لـ: "أخبار الديّار" و "أخبار الثقافة" و "الفصيح" و "إفريقيات" الصادرة باللغة الفرنسية من باريس.

تداول على رئاسة تحرير "الفصيح" ثلاثة رؤساء تحرير كان آخرهم "سي منجي" الذي هو صهر "سي عبد الستار" و ابن أخت زوجته، السيدة "وسيلة"-مدرسة تعليم ثانوي-. كان منجي يعلم أن صهره يعرف حقيقة "المتفائل دائما.." عن ظهر قلب، غير أنه فشل في الوصول إلى أية معلومات حتى عن طريق زوجته، السيدة "سرور"، ابنة "سي عبد الستار" الكبرى، لأنها بكل بساطة لا تعرف هي بدورها أية معلومة عن صديقنا.

كان سر صديقنا أبعد من أن يصل إليه أحد، كيف لا و قد إأتمن عليه "سي عبد الستار" الذي كان صديقنا يسميه "بئر الصحافة".
أما بخصوص رئيسي التحرير السابقين "للفصيح"، كان الأول يدعى "الحاج أحمد" و هو أحد أقارب "سي عبد الستار"، بقي في رئاسة التحرير حوالي عشرة أعوام ثم توفي على اثر حادث مرور. هو الآخر لم يعرف صديقنا و لم يكن يهتم بالأمر. فلم يكن يهتم "بمن عضّ منْ.؟" (الكلب عضّ صاحبه، أم السيّد عضّ كلبه..؟) كان كل همّه في الحياة: الوضوء و الصلاة. يدخل مقر الجريدة متوضئا مصليا و يغادرها متوضئا مصليا. فلا يطيل البقاء في مكتبه أكثر من بعض الدقائق. لم تكن للفصيح آنذاك شهرة و لا صيتا فكانت مبيعات الجريدة ألف نسخة و لم تكن أسرة الجريدة تتجاوز ثلاثة أو أربعة أفراد بمن فيهم "صاحبنا" الذي كان وقتها معتكفا في مكان ما.
بعد وفاة "الحاج أحمد" خلفه شقيق "سي عبد الستار" "الدكتور مصطفى" و قد عمّر هو الآخر عشر سنوات نُقل على اثرها لرئاسة تحرير "افريقيات" بباريس.

"سي مصطفى" هو شقيق "سي عبد الستار" الوحيد، متحصل على دكتوراه فرنسية في علوم الاتصال، كان رجلا فرنكوفونيا حتى النخاع فلم يكن يهتم إلا بما هو إنتاج باللغة الفرنسية، و لم تكن "الفصيح" بالنسبة إليه أكثر من "محطة صحفية و اتصالية" (كما كان يحلو له أن يقول مبتسما..)

لم يكن يهتم لا بصديقنا و لا بركنه و لا بقراء الجريدة و لا بالعربية أو أهلها. كان يقضي معظم وقته في تأليف كتابه العلمي الأكاديمي حول "الاتصال و الانفصال في العالم الفتي.." باللغة الفرنسية، كان يوكل مهمة مراجعة المقالات و تأشيرها إلى رئيس قسم "الشؤون السياسية".

بعد "سي مصطفى" حلّ ركب "سي منجي" الذي كان محررا مبتدئا على عهد سلفه "سي مصطفى" و كان ولا يزال وصوليّا تعتريه عقدة العظمة و لا يدخر جهدا في الوصول إلى هدفه الأوّل

و الأخير، كشف سرّ صاحبنا و نشر غسيله أمام القراء، اذ كان يظن أن وراء تخفي صاحبنا عن الأعين سر هائل و من مصلحته تعريته. كما لا يخفى على أحد رغبة "المنجي" الظاهرة في

وراثة الصحف الأربع واحالة صهره المدير العام على التقاعد.
"سي عبد الستار" يعلم جيدا نوايا صهره و يعلم أنه وصولي نفعي و مع ذلك كان يحترمه لأنه على حدّ قوله: "ذكي، طموح و هما ميزتان لا يتوفر عليهما إلا الصحفي "الناجح"، علاوة على أنه زوج ابنته.
امضى صاحبنا حوالي ثلاثين سنة في العتمة خلف ستار من الغموض لا يعرف مكنونه غير صديقه "سي عبد الستار" و تلميذته "حسنة".

انضمت "حسنة" إلى أسرة تحرير "الفصيح" بعد أن تدخل لها صديقنا عند "سي عبد الستار"، قبل ذلك كانت من قراء "الفصيح" الأوفياء فلم يكن يفوتها عدد على مدار السنة، منذ عهد شبابها و هي من المعجبات بركن الحيارى الذي يشرف عليه "المتفائل دائما.."
عندما كانت حسنة طالبة جامعية مرت عليها مشكلة عائلية خانقة هزتها و كادت تعصف بحياتها. فكتبت رسالة لصديقنا على عنوان "الفصيح" ليساعدها على إيجاد حلّ لمشكلتها كما

تعوّد مع جميع القراء الحيارى التائهين الذين يطلبون مساعدته. و كانت ردود صديقنا على رسائل القراء تنشر تباعا على أعمدة "الفصيح"، غير أن رده على رسالة "حسنة" لم يعجبها و لم يقنعها، فكتبت إليه رسالة ثانية تقول فيها:

"إلى السيّد "المتفائل دائما.." المشرف على ركن "قلوب في دوامة.."، بعد التحية و الاحترام، أعلمكم أنّني قرأت في هذا العدد، الذي هو بين يديّ، ردّكم على رسالتي. قلتم: "يا آنستي، ح. م.، إن كانت هذه الأزمة التي مرّت بأسرتك جعلتكم فقراء. فالفقر ممكن و هو ليس عيب، و إن كانت هذه الأزمة جعلتك تعيدين السنة و ترسبين، فأنت أخفقت سنة و لن ينته العالم و ستنجحين السنة المقبلة. و إن كانت هذه الأزمة تسببت في هجرة أخيك، فالهجرة ظاهرة إجتماعية-إقتصادية عادية و قد تصنع الرجال.."

قلتم كذلك: "يا آنستي، هذه المشاكل التي حدثتني عنها في رسائلك هي أزمات بسيطة، غير قاتلة، و تستطيعين تجاوزها بقليل من الحكمة و العزم، و ذلك بإعادة المياه إلى مجاريها بين والديك المتخاصمين و حث أبيك على التراجع عن فكرة

الطلاق و هجر أسرته (...) فهل يمكن أن تتوقف الحياة بسبب هذه المشاكل العارضة، المتكررة تقريبا في جميع أسرنا (...) و التي حلولها في المتناول. لا أعتقد أن فتاة عاقلة، مثقفة و متعلمة مثلك تحدث نفسها "بالانتحار" بسبب هذا. "

قلتم أيضا في موضع آخر من الرسالة: "راجعي نفسك، يا آنستي، الحياة جميلة و تستأهل أن نحياها و ننعم بها (...)"

يبدو، سيدي "المتفائل دائما.." أنك متفائل أكثر من المعقول و أن تفاؤلك أمسى خيالا و ضربا من المثاليات، فإن كان الفقر ليس بمشكل و إن كان الطلاق ليس بمشكل و إن كان تشتت أسرة ليس بمشكل و إن كان اليأس ليس بمشكل و إن كان شبح التشرد ليس بمشكل و إن كان الفشل ليس بمشكل.. فما المشكل، إذن، يا سيدي..؟ تنصحني بالتفاؤل، كيف لي أن أتفاءل و الفشل أمامي و ورائي و طريقي مسدودة. تنصحني بالصبر، من أين آت به..؟

أنصحك، سيدي "المتفائل دائما.." بأن تسمي نفسك "المقيم في البرج العالي" أو "الضاحك على ذقون الحيارى.." أنت تضحك علينا و تصف لنا

وصفات وهمية، و إنني اقسم أنك لم تجرب الفقر و لا الحرمان و لا اليأس و لا الفشل، و أقسم أنك شخص ميسور الحال لا تعرف معنى هذه الكلمات.
فكيف يحس أمثالك بمشاكل أمثالي..؟
أنصحك، سيدي "المتفائل دائما.."، و أنت الذي تعوّد على توجيه النصح من برجه العالي، بتجربة الواقع و صفعات الحياة و خشونة الدنيا و بعدها أنصح العباد.."
(مع الشكر، ح. م. (الوسط)
وصلت رسالة حسنة إلى صديقنا. قرأها. تأثر بها، فأمر بنشرها في الجريدة كاملة، دون قصّ، و علّق عليها بكلمتين: "أشكر الله يا آنسة ح. م. فعلى الأقل حالك أحسن من حالي بألف مرّة.."
قرأت حسنة تعليق صديقنا على رسالتها في "الفصيح" و لم تستطع فكّ رموز الجملة المقتضبة تلك بل فهمتها على أساس أنها كلمات تهكّم و سخرية منها، فحرّرت رسالة جديدة إلى صديقنا قرأها دون أن يرد عليها. و تكرّرت رسائلها دون أن يوليها المحرّر عناية. كانت جميعها تصب في غرض واحد: نقد "المتفائل دائما.." و السخرية من بورجوازيته الساذجة التي تصوّرت أنه

يعيشها. فحسنة آمنت أنه بورجوازي يقبع في برج عال متعال عن أرض الواقع و أنه يدّعي التواضع و الإنصات لمشاكل القراء.
لم تنقطع حسنة عن مراسلة صديقنا على امتداد أكثر من أربعة أعوام و قد انفرجت خلالها أزماتها و مشاكلها. فكانت تخبره عن أحوالها و أحوال أسرتها شاكرة له نصائحه التي تفطنت لمغزاها مع مرور الزمن و التي ساعدتها على انقاذ أسرتها بعد أن تآلفت القلوب. فتخرجت هي من كليّتها و استقرت أسباب الحياة لأخيها في المهجر. فاستحال بؤسها أملا و حزنها فرحا.
كانت رسائل حسنة مصدر سرور كبير له إذ كان ينتظر حلولها بفارغ الصبر عندما يسلمها إليه "سي عبد الستار" من أسبوع إلى آخر.
كانت جميع رسائلها تحمل في هامش ورقة التحرير الجملة التالية: "سيدي، المتفائل دائما.." أرجوك، أن تقول لي "ماذا كنت تقصد بجملتك (حالك أحسن من حالي بألف مرة..) أرجوك، أريد تفسيرا لهذه الجملة-اللّغز-" (حسنة.)
كان صاحبنا يعرف عن حسنة كلّ تفاصيل حياتها، تقريبا. فقد عرّفته بنفسها بصورة ضافية عن

طريق رسائلها و صورها –رفقة أفراد عائلتها و أصدقائها–التي كانت ترسلها إليه تباعا.
أما هي فلم تكن تعرف عنه شيئا أكثر من اسمه الصحفي المستعار أو صوته إذ كان يهاتفها في منزلها من وقت إلى آخر. لم يفصح عن حقيقته لحسنة و تركها في حيرتها قائلا في نفسه: "في اللحظة المناسبة سأخبرها بحقيقتي.. قريبا."

أُعجب صديقنا كثيرا بثقافة حسنة و سعة اطلاعها على جميع الميادين و العلوم تقريبا و كثافة معلوماتها في علوم الاتصال و الصحافة خاصة و اعتبرها ابنة له فكان يكتب إليها عديد الرسائل على عنوانها بمدينتها بوسط البلاد ناصحا مرشدا فاعتبرته هي بدورها أبا روحيا لها. فكانت تطلعها على أدق تفاصيل حياتها و علاقاتها الاجتماعية و تحكي عن لحظات سرورها و تكدّرها بكل عفوية و تلقائية.
و قد إليها يقول: "إلى ابنتي العنيدة حسنة، اشتقت كثيرا إلى مشاكساتك التعبيريّة العذبة بعد أن انقطعت عن مراسلتي.. ما خطبك، ابنتي.؟ هل تمرين بمشكلة ما.؟ أخبريني عاجلا عن كل ما

يعتريك. لن أطمئن عليك حتى يصلني مكتوبك، حاولت مهاتفتك و لم أفلح.. إلى اللقاء..(أبوك "المتفائل دائما.."

قرأت حسنة الرسالة فتأكدت أن صديقنا أحسّ بتكدرها و أنه يروم مساعدها، فهمت يومها بكتابة رسالة إليه تخبره فيها عن كل ما ينغّص حياتها، غير أن بعض الإرهاق اعتراها و جعلها تؤجل التحرير إلى الغد.

عند مساء ذلك اليوم رنّ جرس الهاتف في غرفة الجلوس حيث كانت حسنة بصدد مشاهدة جهاز التلفزيون، رفعت حسنة السماعة:

- "آلو.. نعم."
- "آلو.. أنا أبوك "المتفائل دائما.."
- "أهلا و مرحبا.. كم أنا مسرورة بسماع صوتك.. بمجرد سماعه طار عني الإرهاق.."
- "ما بك يا ابنتي.؟.. أنا قلق عليك.. لا رسائل و لا مكالمات.. ما الأمر..؟

أجهشت حسنة بالبكاء و توقفت عن مكالمة صديقنا.

- "آلو.. حسنة.. حسنة.."
- "..."
- .. ما بك يا ابنتي.؟"

بعد لحظات من الصمت استعادت حسنة و عيها و ردّت عليه:

- "أرجو المعذرة.. في الحقيقة إنني متأزمة مهمومة الخاطر بسبب الانتظار.. انتظار التعيين.. الفراغ يكاد يقتلني و انا قابعة في مكاني دون أن أستطيع تغيّير وضعيّتي، فشلت في ان أتحرك إلى الأمام بعد تخرجي ولو قيد أنملة."
- "هذا فقط ما يرهقك..؟"
- "وهل هذا بسيط.. يا "بابا"..؟"

- "اسمعي، يا حسنة، غدا صباحا أريدك أن تكوني في مقر "الفصيح" على الساعة التاسعة صباحا لمقابلة رئيس التحرير "سي منجي" الذي سيسلمك أوراق تعيينك في الجريدة كمحرّرة متربصة في ركن الثقافة. أنت من المساهمين في انشاء هذا الركن فضلا عن أنك متحصّلة على أستاذية في اللّغة و الآداب العربية.. لا تنسي أن تجلبي معك ملفا كاملا.. مبروك.."
- "لا أكاد أصدق.. لا أكاد أصدق.. هل سأشتغل أخيرا مثل بقية خلق ربي.. هذه معجزة "يا بابا".."

و في غمرة فرحها طبعت على سماعة الهاتف قبلات متتالية كان لها دويّ جذاب

و حنون في أذن صديقنا.

- "لا شكر على واجب، بنيتي.. أنت تستحقين هذا العمل عن جدارة و أنا من رشحتك للعمل بهذه الخطة اعتمادًا على المراسلات التي كنت أتلقاها منك و التي تعكس مستوى محترما في حذق اللغة العربية نحوا و تركيبا و تعبيرا و بلاغة. فضلا عن أن الجريدة تنوي منذ فترة انتداب صحفيّين تتوفر فيهم الشروط نفسها التي تتوفرين أنت عليها.."
- "غدا.. غدا.. يعني غدا..؟"

يضحك صاحبنا..

- "نعم غدا.. هنيئا لك.. إلى اللقاء الآن.. سأنتظرك غدا.."

في اليوم الموعود حلّت حسنة بالعاصمة قادمة من مسقط راسها و في تمام الساعة التاسعة صباحا كانت واقفة امام مكتب "سي منجي"

- "أنت إذن حسنة.. الآنسة حسنة التي تدخّل لها "سي المتفائل.." شخصيا.."
- "نعم يا أستاذ.."

كان منجي في قرارة نفسه يلعن حسنة هذه و أهلها و يلعن صاحبنا و تمنى لو يستطيع طرد هذه الفتاة القادمة من "زون الظل" (كما سيسميها المنجي لاحقا) و يصفعها صفعة يسمعها دويّها "المتفائل.." في مخبئه، و برغم ما يعتمل في قرارة نفسه من كره لهذه الفتاة "النحيفة" التي توسط لها غريمه عند "سي عبد الستار" (مولى المول)، فقد تمالك نفسه و ابتسم لها قائلا:

- "هنيئا لك يا آنسة، هذه أوراق تعيينك.. أرجو لك التوفيق في مهمتك، لا تنسي أنك ستبقين تحت التمرين و التربص لمدة ليست بالهينة.. فاجتهدي في

عملك.. أرجو لك التوفيق في مهنة المتاعب (الصحافة..)

- "أرجو أن أكون عند حسن الظن، يا أستاذ.."
- "يمكن أن تشرعي من الآن في عملك – طبعا بعد إتمام إجراءات انتدابك الإدارية من قبيل تعمير بعض المطبوعات و تعريفها – سيمرنك "سي طارق" زميلنا على العمل الصحفي تدريجيا، فهو صحفي قديم و قد أوكلت له مهمة تدريبك و الإشراف عليك لمدة سنة كاملة، قبل أن يحين موعد ترسيمك، طبعا بعد النجاح في التربّص الإجباري بالجريدة.

رفع "سي منجي" سماعة الهاتف و حادث "طارق" موصيا إياه بمساعدة زميلته الجديدة و حسن تدريبها.
همت حسنة بالخروج غير أنها عادت أدراجها و خاطبت رئيسها الجديد بصوت محتشم:

- "عفوا سي منجي.."
- "نعم.. تفضلي.."
- "أريد أن أسألك.."
- "نعم.. تفضلي.."
- "بخصوص.. بخصوص.. المتـــــ.."
- "آه.. بخصوص النجم الساطع و الجوهرة الفريدة و أعجوبة الدنيا الثامنة، سي المتفائل دائما.."
- "نعم يا أستاذ.. اذا سمحت لي.."
- "اسمعيني جيدا.. اذا أردت الارتزاق في هذه الجريدة فلا تسألي كثيرا.."

- "اسأل عنه.. أردت أن أشكره.. و التعرف عليه مباشرة"
- "تريدين معرفة "سي المتفائل.." و أنت صحفية منذ ربع ساعة.. إنني أشتغل في هذا المكان منذ سنوات طويلة و لا أعرف شيئا عنه..."
- "عفوا سيّدي.. أردت فقط أن..."

قطع "سي منجي" هذا الحوار بإشارة من يده المراد منها: "هيا أغربي عن وجهي.."

خرجت حسنة من مكتب رئيسها بعد حوالي نصف الساعة و رأسها يعج بعشرات الأسئلة الحائرة. هل يعقل ألا يعرف رئيس تحرير جريدة ما صحفيّا يشتغل تحت اشرافه؟ أقنعت نفسها و هي متجهة إلى قاعة التحرير – التي دلّها عليها أحد المحرّرين – أن "سي منجي يشاكسها لا سيّما و قد حذرها صديقنا من خبثه و لؤمه.

مكثت حسنة ذلك اليوم و هي تنتظر قدوم صديقنا لكن دون جدوى.
أمضت ليلتها في احدى النزل القريبة من مقر الجريدة و من الصباح كانت تجلس إلى مكتبها الجديد. رن جرس المكتب الصغير.

- "آلو.."
- "آلو.. صغيرتي حسنة.. انا "بابا المتفائل دائما.."
- "أهلا.. كيف حال.. انا سعيدة بسماع صوتك.. لقد انتظرتك بالأمس و اليوم كثيرا و لم تأت.."
- "هل تسلمت عملك الجديد.. هل أعجبك.."
- "نعم.. نعم شرعت في العمل.. لكن لماذا لم أجدك.. و لم أعثر على مكتبك في الجريدة.. سألت عنك الجميع هنا فأخبروني بعدم وجودك مطلقا في

الجريدة و أنه لا مكتب لك هنا..

- "ها أنا بجانبك يا حسنة.."
- "لا تتعبي نفسك بالسؤال عني.. وعن مكتبي.."
- "سأهاتفك كلما استدعى الأمر.."
- "لماذا لا استطيع زيارتك في مكتبك.."
- "فلننسى الآن هذا امر.. افتحي الآن درج مكتبك و ستجدين عقد شقة صغيرة في إحدى الأحياء القريبة من الجريدةن لمدة سنة كاملة قابلة للتجديد، الشقة مؤثثة.. عند منتصف النهار سيأتيك من يوصلك إلى مستقرك الجديد.. مبروك يا بنيتي.."

عجزت حسنة عن مواصلة الكلام. الشكر لا يكفي هذا الرجل و لتا يوفيه حقه. كيف سترد له هذا

الجميل. شغّلها، سكّنها و حباها برعايته. لماذا يفعل معها كل هذا..؟
هل يفعل معها الخير للخير؟ أم أنه يضمر لها أمرا ما هي لا تعلمه..؟
بقيت حسنة فاغرة الفم و سماعة الهاتف تتدلى في يدها اليمنى. طرحت على نفسها عشرات الأسئلة و راحت تحدث نفسها في نفسها: "لابدّ أنه يرغب في ثمن لهذا الجميل الكبير الذي قدمه لي "ما فماش قطوس يتصيّد لربي.." ما هو الثمن الذي يريده؟ كل شيء بثمنه في هذه الدنيا.. هذا مؤكد "خوذ و أعطي.." هذه هي عملة العصر.. طبعا هو مثل كلّ الرجال لن يطلب من أنثى اغرقها بحسناته غير جسدها و عفتها.."
غير أن صوتا آخر أكثر هدوء و اتزان اخترق هواجسها و راح يحدثها: "لا تظلمي الرجل و هو الذي يناديك بـــ"بنيتي" و يؤكد لك دائما أنه في مقام والدك. و على اية حال عد المبادرة تصدر عنه أولا و ستعلمين إن آجلا أو عاجلا مراميه.."
اطمأنت حسنة لهذا التفسير الحكيم، قائلة لنفسها في صوت خافت: "الأيام كفيلة بكشف ما خفي.."

عادت إلى سماعة الهاتف معتقدة أن صاحبنا لا يزال على الطرف الاخر من الخط.

- "آلو.. آلو.."
- "..."

غير أن مهاتفها غادر الخط لأن حوارها مع نفسها طال و عزلها عن حوارها معه.

مرت الأيام هادئة في حياة حسنة الصحفية و أصبحت محترفة بفضل توجيهات صديقنا من حين إلى آخر إذ لم يكن يمر يوما دون أن يهاتفها و يطمئن عليها و على عملها. ثم لا ننسى فضل زميلها "طارق" الذي أحسن تدريبها و أجاد. فأحبها جميع زملائها و احترمها رؤساؤها فأطلقوا عليها اسم "صحابة الجلالة" لما عرفت به من اتقان لمهنتها و قد ارتفعت بفصل صفحتها الثقافية مبيعات "الفصيح" فضلا عن صفحة صديقنا "قلوب في دوامة.." الشهيرة.

و لم تحاول الآنسة حسنة أن تعرف عن صديقنا أكثر ممّا عرفت عنه، فهي مقتنعة أنه عظيم، زكي الأصل لا مثيل له و أنه سيأتي يوم و يخبرها هو بنفسه بكل صغيرة و كبيرة عن حياته الغامضة.

فما عليها سوى الانتظار لا سيما أنه وعدها بأنه سيكشف لها عن حقيقته في الوقت المناسب.

كانت ردود صديقنا على بريد قرائه تصل إلى مقر الجريدة عن طريف "سي عبد الستار" الذي تصله إلى منزله بواسطة "عم ساسي"، الذي يشتغل في منزل صديقنا. و منذ تعلق صاحبنا بحسنة و اطمأن إليها آلاها جميع الاهتمام فأصبح يرسل إليها هذه الردود مباشرة إلى شقتها عن طريق "عم ساسي".
و بذلك أعفى "سي عبد الستار" من عبئ، و كم فرحت حسنة بهذا التشريف و رات فيها خطوة كبيرة يقطعها صديقنا في الوعد الذي قطعه على نفسه بالكشف عن حقيقته.
تسلمت حسنة الردود من العجوز و قبل ن يغادر سلمها رسالة على حدة مؤكدا أنها تخصها مرسلة من "المتفائل دائما.." شكرته و أسرعت إلى فتحها فقرأت التالي:
"ابنتي، حسنة آزفت ساعة الحقيقة، يمكن لك الآن أن تطلعي على سرّي و هذا هو العنوان (...)

"عمك ساسي" سيصحبك هذا المساء إلى منزلي على الساعة الثامنة. كوني في الانتظار. أبوك "المتفائل دائما.."

فرحت حسنة بقرار صديقنا هذا و بادرت إلى تمزيق تلك الرسالة (مثلما طلب منها صديقنا ذلك في نفس هذه الرسالة.) أخيرا ستتمكن من فك رموز لغز الرجل الذي حيّرها سنوات طويلة و حيّر من قبلها أسرة الجريدة كافة و القراء جميعا. دون أن يتمكّن أحد من كشفه،

حتى "سي منجي" صاحب النفوذ و السلطة أخفق في إماطة اللثام عنه، أحست نفسها قوية أقوى حتى من "سي منجي"، حملت ردود صديقنا إلى قسم التصنيف و الرقن، سلمتها إلى العاملين هناك و غادرت الجريدة.

آزف الموعد. حلّ "عم ساسي" و اصطحب معه حسنة إلى منزل صديقنا على متن سيارة "تاكسي"، بعد حوالي نصف ساعة من انطلاقهما كانت السيارة واقفة أمام باب بناية متواضعة قديمة ذات طابقين صُممت على الطراز الإيطالي بمنطقة ريفية بجنوب العاصمة. دفع "عم ساسي" أجرة التاكسي و صرف صاحبها. ثم فتح الباب

بمفتاح كبير سحبه من جيب سترته. استدعى حسنة للدخول مرحبا:

- "تفضلي، تفضلي.."
- "شكرا لك يا عمّي.."
- "سي محمّد، أوصاني بك خيرا.."
- "شكرا له و لك، "عم ساسي"

ولج الاثنان باب هذا المنزل العتيق المحاط بأشجار الزيتون و المسيّج بجدار قصير بنيّ مزيّن بنبات متسلق غير مرتّب.

دعى "عم ساسي" حسنة إلى صعود المدارج الموصلة إلى الطابق الأوّل حيث يوجد صاحبنا.

كانت حسنة تتبع العجوز في ذهول و حيرة. لماذا لم يستقبلها مضيفها بنفسه كما جرت العادة بين الناس.؟ لماذا يخيّم على منزله هذا الهدوء الغريب..؟ و ما هو مصدر هذه الرائحة "الرطبة" التي تنبعث منه و كأنها في منزل "الكونت دراكولا".. ثم لماذا يسكن في هذا المكان البعيد النائي..؟

التفت حسنة متوجسة نحو "عم ساسي" الذي يسير وراءها:

- "اين هو "سي محمّد"..؟
- "في غرفته..! "

ماذا..؟ في غرفته.. لماذا يريد الرجل استقبالها في غرفته، في غرفة نومه!؟ ترددت الفتاة قليلا في صعود المدارج و هي تحدث نفسها في حيرة، رامت بشدة العودة من حيث أتت و همت في حركة لاشعورية بالنزول غير أن العجوز كان يحثها على مواصلة الطريق بلطف:

- "هيا يا بنيتي، "سي محمّد" ينتظرنا و هو يعلم أنك وصلت منذ فترة.."

يعلم أنها وصلت..! هل كان يراقبها، يراقب دخولهما من شباك غرفته في هذا المنزل المخيف؟! كبتت حسنة جماح هواجسها و تقدمت من غرفة صديقنا. همت بطرق الباب و إذا بها تلتفت إلى الرجل العجوز معتقدة أنه هو من

سيطرق الباب للاستئذان في دخول ضيفته لكنها لم تجده بجانبها. ربما يكون قد دخل إحدى الغرف الأخرى الكثيرة. تردّدت في طرق الباب و بقيت واقفة متسمرة في مكانها أمام باب الغرفة لا تبرحه.

فجأة سمعت صوتا –صوت رجل كهل- يدعوها للدخول، مرحبا:

- "تفضلي بالدخول، حسنة.."

ثم انفتح الباب من تلقاء نفسه..

تملك هلع شديد الفتاة و لم تجب. عاد الصوت ثانية:

- "أدخلي، يا حسنة.. لا تترددي.. أرجوك.."

كان هذا الصوت يصل إلى مسامعها من مكان ما في الحائط. أصر صوته عليها في الدخول و كان لا مهرب لها من ذلك فدخلت:

كانت اضاءة الغرفة خافتة، بحثت الفتاة عن مصدر الصوت فما استطاعت العثور عليه و هي تظن أن صاحبه ربما يكون جالسا على أريكة

كبيرة تحتويه فلا يُرى منه شيئا مثلما يظهر في أشرطة الرعب السنيمائية التي تعشقها حسنة:

- "سي محمّد.. أين أنت..؟"
- " هنا.. أنا هنا يا ابنتي وراء هذا الستار المحاذي للنافذة التي تقابلك مباشرة."

كان الصوت هذه المرة طبيعيا يصدر مباشرة عن شخص مستلق على سرير النوم. و قد كان في مستهل دخول حسنة الغرفة صادرا عن مضخم صوت صغير مثبت في سطح رواق الطابق الأوّل.

ألا يكفيه أن يستقبل ضيفته في غرفة نومه حتى يدعوها إليه و هو مستلق على سريره..

لماذا يفعل معها هذا. !؟ هل جاء وقت رد الجميل الآن يا حسنة.. عليك ايفاءه أجره، إنه يطلبه الآن.. حان وقت "خلاص الفاتورة"، يا حسنة.. !؟

- "المعذرة، "عم محمّد" أنا في انتظارك هنا، حتى تنهض من سريرك.. !؟"
- "تعالي يا بنيتي.. لا تخافي.. !

تقدمت الفتاة نحوه في خطى متثاقلة، رفعت الستارة ببطئ مطأطأة الرأس و هي تظن أنها ستراه بزي آدم مستلق على سريره (مثلا. !) لماذا إذن اصّر على دعوتها إلى مخدعه إن لم يكن يرغب في مراودتها عن نفسها و يظهر أنه بيّت للأمر منذ مدة.. !

- "أهلا وسهلا يا حسنة.. مرحبا.."

ببطئ شديد رفعت الفتاة رأسها دون أن تنبس بكلمة، صرخت، شهقت ثم تقهقرت إلى الوراء لتسقط مغشية عليها. هرع إليها "عم ساسي" – الذي كان يقف خارج الغرفة – بعد أن سمع صراخها.

- "أُسكب عليها بعض العطر لتستفيق يا "ساسي خوي.."

استعادت الفتاة وعيها فساعدها العجوز على النهوض و أجلسها على أريكة مقابلة لسرير صاحبنا. الذي خاطبها برفق:

- "ما بك، يا بنيتي..؟"

انفجرت حسنة باكية و هي تمسك رأسها بكلتا يديها.

- "هل أفزعتك..؟"

لم تستطع أن تنطق ولو بحرف واحد غصّت بالكلام و كأنها فقدت النطق فجأة.

- "أرجوك، يا ساسي، اجلب لها كأسا من عصير الليمون و قهوة لي.. سأشربها هذه المرّة من يد بنيتي حسنة.."

غاب "العم ساسي" لحظة ثم عاد و هو يحمل ما طُلب منه، و ضع "الصينيّة" أمام حسنة فوق طاولة صغيرة و انصرف.

- "هيا يا بنيتي، اشربي عصيرك، لماذا كل هذا الجزع. إنها حكمة الله و قضائه. !

أحست الفتاة ببعض الهدوء، فتكلمت بصوت متقطع باك..

- "ماذا حلّ بك..؟ يا إلهي.. !"
- "قضاء الله، يا حسنة.. حكمة ربي.."
- "أعذرني.. أعذرني.."

الآن فقط فهمت حسنة جملة صديقنا التي كتبها لها مرّة: "أشكري ربك فحالك أحسن من حالي ألف مرة.. !" كانت الفتاة تكلم شبه إنسان، لم يبق من جسمه غير النصف العلوي: رأسه، رقبته و قليل من فخذيه. خاليا من أطرافه العلوية و السفلية (لا يدان و لا ذراعان. لا قدمان ولا ساقان.) أحاطت به مجموعة من الأجهزة الكهربائية و الميكانيكية المتداخلة: على يمينه و على يساره و فوق راسه..

- "لا أكاد أصدق.. يا إلهي.."
- "بل صدقي يا حسنة.. يوجد في هذه الحياة من حاله أسوأ من حالي بكثير

و رغم ذلك نجده سعيدا متعلقا بالحياة و بأسبابها.."

- "كيف حصل لك هذا؟"
- "اصبت في حادث مرور خطير، نجوت منه بأعجوبة و ماتت على إثره كلّ من زوجتي و ابنتي الوحيدة "حسنة".. كان اسمها مثل اسمك، لو بقيت على قيد الحياة لكان الآن عمرها في مثل عمرك.. رحمهما الله.. الحمد لله لقد عوّضني الله خيرا بك أنت يا حسنة.. الحمد لله و الشكر له.."

كانت الفتاة تنصت إلى صديقنا و الآسى ينهش قلبها فتنفجر باكية دون توقف..

انتقلت حسنة إلى العيش مع صديقنا بعد أن ألغت عقد كراء شقتها. و لم تطلع أحدا على حياتها الجديدة، أخفتها عن الجميع و خاصة عن منجي و فرقته و على رأسها "طارق" الذي يلح عليها في الزواج و لا ينفك عن احراجها.
و تمر الأيام (...) تواصلت حياة صديقنا رفقة حسنة سعيدة ملؤها السرور و الحبور. فملأت عليه وحدته و أعادت لبيته دفئ الأسرة الذي فقده منذ ثلاثة عقود خلت، فأصبحت الفتاة هي كل حياته: الصديقة، البنت، الأخت، السكرتيرة، الممرضة، الطاهية... كل شيء..

خلال أحد الأيام كانت حسنة بصدد السهر مع صديقنا تقرأ له قصة سارتر "الغثيان" (التي يحبها صديقنا كثيرا..) و هو يصغي إليها في اهتمام معجبا بصوتها الملائكي الحنون و مأخوذا بحذقها لصوتيات اللّغة الفرنسية.. عند الصفحة السبعين توقفت الفتاة فجأة عن الفراءة، طوت الكتاب، رفعت رأسها مخاطبة صديقنا دون مقدمات و بكل تلقائية.. و كأنها سترمي عليه حملا من الكلام يؤرقها و يثقل كاهلها:

- "لماذا لم تتزوج.. مرّة ثانية.. ما المانع..؟"
- "هل يستطيع الزواج من هو في مثل حالتي زيادة عن سني..؟ و هل توجد امرأة يمكن أن تقبل بي..؟ !
- "ألف تتمناك.. سعيدة الحظ التي تتزوجك.. إن وافقت أنت (طبعا)"
- "من هي يا حسنة التي تقبل أن تربط مصيرها بشبه جسم رجل..؟"
- "أنا.. و يشرفني ذلك.. نعم أنا.. أنا.."

مرت ايّام الزفاف سعيدة و استطاعت حسنة أن تعيد إلى صديقنا ثقته بنفسه على جميع المستويات.. بعد سنتين من زواجهما حملت حسنة منه و أنجبت بنتا جميلة سماها صديقنا "حسنة" على اسم ابنته الراحلة و زوجته العزيزة العظيمة.
ازداد "المتفائل دائما.." إقبالا على العيش فأبدع و أجاد في مهنته.. و لم تبق حياته باردة ميّتة في الظل بعد أن بزغت فيها شمس "حسنة" الدافئة..
و مضت الأيام.. شُفي من دائهم و رفعت عنه حسنته الوباء..

– تمت –

استطراد..

"لا تسقط التفاحة بعيداً عن الشجرة."
(حكمة عالمية)

"إذا كانَ أصلي من ترابٍ فكُلَّها.. بلادي وكلُ العالمينَ أقاربي."
(أبو الصلت أمية الإشبيلي)

"أصلي ترابٌ فالأنام بأسرهم لي أقربون و كل أرضٍ داري."
(ابن الوردي)

خاتمة..

رحلة العمر تبتدأ بلحظة وتنتهي بلحظة و بين اللحظتين يشحن الواحد منا "بطاريات" وجوده ألف مرّة و مرّة لمدة ساعات

طويلة و طويلة مثل ذاك الاختراع العجيب "الهاتف الغبي"، و قد تكون ممّلة و مضنية أحيانا أخرى. يشحنها ليعيش و يشحنها كذلك حتى لا يعيش في سكون و شتان بين السكون و الحركة. شتان بين أن نعيش أو لا نعيش.
رحلة ممتعة و لذيذة، رحلة الوجود، رحلة الموجود. تيه و انطلاق من مجهول غير معلوم – مبهم و "مطلسّم"– نحو معلوم قد يفلت من الرتابة. رتابة الحياة اليومية المتكرّرة الممّلة و لكنها واجبة الوجود و تلك هي الحياة الحقيقية التي يجب أن نحياها و ننجح فيها. هنا "تنفذ" البطارية و لابدّ من إعادة شحنها. بين اللحظتين الأولى و الأخيرة كانت بطارياتي كلماتي و شُحنتها: أفكار و تجارب و ذكريات و ربما أحلام تاهت فيّ و تهت فيها فكانت "قتلها كورونا" و ضعتها بين أيديكم ، سيداتي، سادتي، متاهة مكشوفة و كلمات متقاطعة يصحبها الحل في نفس "العدد". ليست هي ضياعا وليست ضلالا أو تضليلا. ليست هي السطح و ليست العمق. ليست هي الحلّ و ليست الإشكال. هي بكل بساطة من وحي خيال مؤلف.
(شكرا.-الكاتب)

صالح مبروكي

صالح مبروكي

جميع الحقوق محفوظة للكاتب © 2019

صالح مبروكي

كاتب و قاص تونسي من مواليد سنة 1968 بمدينة أم العرائس المنجمية، فيها زاول تعليمه الابتدائي و الثانوي، ومنها انتقل إلى العاصمة و شهادة البكالوريا آداب "في جيبه" ليدرس بمعهد الصحافة و علوم الإخبار.

فني مؤهل بشركة فسفاط قفصة منذ سنة 2002 في ميدان المكتبية والسكريتاريا و التصرف التقني.

بالاعتماد على التقنيات الجديدة في ميدان الإعلامية و الوسائط المتعددة تمكّن من تعليم نفسه بنفسه و اكتسب مهارات في الأنفوغرافيا و غيرها من الأدوات الفنية الرقمية الأخرى.

من إصداراته المنشورة: "غياهب التّيه.." (مجموعة قصصية-2019) و "طقوس ممحاة.." (مجموعة شعرية- 2020)

- الإقامة: أم العرائس-قفصة-الجمهورية التونسية.
- الهاتف: 987 603 98 (216+)
- البريد الإلكتروني: salehymabrouki@gmail.com